رؤية نقدية لجدولة الفكر الإسلامي

١٤٠١/٠٨/٢٩

الشيخ. خالد الغفورى: دّينا في هذه الدراسة لتحليل ونقد وتقويم التقسيمات المذكورة للفكر الإسلامي بصورة عامّة أو للمعارف القرآنية بصورة خاصّة وأثبتنا عدم جامعيتها، ثمّ توقّفنا عند إحدى المقولات الشائعة في الأوساط الإسلامية، ألا وهي (إنّ الإسلام يتشكّل من : عقائد وأحكام وأخلاق)، وبعد مراجعة ما يُمكن أن تستند إليه من مستندات، ثمّ أوردنا عليها ثلاث الإشكاليات، وهي: عدم شمولية الثلاثي للعلوم الإسلامية كعلم التفسير الرجال والفقه، عدم شمولية الثلاثي لمنتوجات العلوم الإسلامية، عدم شمولية الثلاثي للمعارف الواردة في الكتاب والسنّة. وقد انتهينا الى عدم تماميتها؛ بسبب عدم جامعيتها للفكر الإسلامي بكلّ امتداداته.

من الأُمور المطلوبة لدى العقلاء هو تقسيم وجدولة الأفكار المتنوَعة لمدرسة واحدة وضغط تلك الأفكار المتعدّدة في قالب محدود وصياغة سلسلة يسهل فهمها والتعاطي معها، وقد عثرنا على عدّ مقترحات لتقسيم وجدولة الفكر الإسلامي بصورة عامّة وبعضها اقتصر على دائرة المعارف القرآنية، لكن من المقولات التي شاعت في الأوساط الإسلامية شيوعاً كبيراً هي محاولة لضغط الفكر الإسلامي على امتداداته في مقولة واحدة مقتضبة ، ألا وهي (إنّ الإسلام يتشكّل من: عقائد وأحكام وأخلاق)، وقد ساد التعاطي بهذه المقولة الخطابَ الإسلامي، وارتكزت هذه المقولة في الأذهان بحيث باتت من المسلّمات، بيد أنّ المنطق يُملي علينا ضرورة بحث هذه المقولة من عدّة نواحٍ: ناحية تحليل المراد بها، وناحية تحديد المستندات لها، وناحية تقويمها من حيث الجامعية والمانعية، وهذا ما نتصدّى له في هذه الدراسة .

ولا تخفى ضرورة هذا البحث؛ نظراً لأنّ هذه المقولة تتضمّن ادّعاءً كبيراً وخطيراً للغاية، وهو خلاصة الإسلام في هذا الثلاثي وضغطه فيه، وكذا الحال بالنسبة الى التقسيمات الأُخرى، وهذا بحاجة الى عملية تقويم للتأكّد من مدى صحّة ذلك، فالإثارة ليست لطيفة وطريفة فحسب، بل هي مهمّة جدّاً، سيما مع عدم التعرّض لها بصورة فنّية من قِبَل الباحثين.

لقد اقترح بعض المفكّرين من القدماء والمعاصرين بعض التقسيمات للفكر القرآني أو الإسلامي، والذي عثرنا عليه منها خمسة تقسيمات، وهي إجمالاً:

التقسيم الأوّل: تبويب العلامة الطباطبائي+ للمعارف القرآنية ، وهو تبويب ثماني:

١. المعارف المتعلّقة بأسماء الله سبحانه وصفاته من الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والوحدة وغيرها، وأمّا الذات فستطلع أنّ القرآن يراه غنياً عن البيان.
٢. المعارف المتعلّقة بأفعاله تعالى من الخلق والأمر والإرادة والمشيئة والهداية والإضلال والقضاء والقدر والجبر والتفويض والرضا والسخط، إلى غير ذلك من متفرّقات الأفعال.
٣. المعارف المتعلّقة بالوسائط الواقعة بينه وبين الإنسان كالحجب واللوح والقلم والعرش والكرسي والبيت المعمور والسماء والأرض والملائكة والشياطين والجنّ وغير ذلك.
٤. المعارف المتعلقة بالإنسان قبل الدنيا.
٥. المعارف المتعلّقة بالإنسان في الدنيا كمعرفة تاريخ نوعه ومعرفة نفسه ومعرفة أصول اجتماعه ومعرفة النبوة والرسالة والوحي والإلهام والكتاب والدين والشريعة، ومن هذا الباب مقامات الأنبياء المستفادة من قصصهم المحكية.

٦. المعارف المتعلّقة بالإنسان بعد الدنيا، وهو البرزخ والمعاد.
٧. المعارف المتعلّقة بالأخلاق الإنسانية، ومن هذا الباب ما يتعلّق بمقامات الأولياء في صراط العبودية من الإسلام والإيمان والإحسان والإخبات والإخلاص وغير ذلك.
٨. آيات الأحكام.

التقسيم الثاني: تبويب السيد الإمام الخميني+ لمقاصد ومعارف القرآن الكريم، وهو تبويب سباعي:
١. الدعوة لمعرفة الله وبيان المعارف الإلهية من شؤون ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، والمقصودة أكثر من غيرها هو توحيد الذات والأسماء والأفعال .
٢. الدعوة لتهذيب النفوس وتطهير البواطن من أرجاس الطبيعة وتحصيل السعادة ، (كيفية السير والسلوك إلى الله) . ووهذا المطلب ينقسم الى شعبتين مهمّتين :
- التقوى (بجميع مراتبها)
- الإيمان (بتمام المراتب والشؤون)

٣. قصص الأنبياء والأولياء والحكما ء، وكيفية تربية الحقّ لهم ، وتربيتهم للخلق .
٤. بيان أحوال الكفّار والجاحدين والمخالفين للحق والحقيقة والمعاندين للأنبياء والأولياء، وبيان كيفية عواقب أُمورهم وكيفية بوارهم وهلاكهم .
٥. بيان قوانين ظاهر الشريعة والآداب والسنن الإلهية .
٦. أحوال المعاد والبراهين على إثباته ، وكيفية عذابهم وعقابهم وجزائهم وثوابهم ، وتفاصيل الجنّة والنار والتعذيب والتنعيم.
٧. كيفية الاحتجاجات والبراهين التي أقامها الله سبحانه وتعالى لإثبات المطالب الحقّة والمعارف الإلهية ، مثل : الاحتجاج لإثبات الحقّ والتوحيد والتنزيه والعلم والقدرة وسائر أوصافه الكمالية .

التقسيم الثالث: تبويب العلامة مصباح اليزدي+ لمباحث القرآن الكريم ، وهو تبويب سباعي:
١. معرفة الله: التوحيد الذاتي والصفاتي والأفعالي.
٢. معرفة العالَم: البحث التفصيلي عن التوحيد الأفعالي.
٣. معرفة الإنسان: يشمل معرفة المعاد أيضاً.
٤. معرفة الطريق: يشمل مباحث نظرية المعرفة وضرورة النبوة وبعثة الأنبياء والإمامة و...
٥. معرفة المرشد: مرتبط بمعرفة الأنبياء وتاريخهم.
٦. معرفة القرآن.
٧. الأخلاق وتربية الإنسان.

التقسيم الرابع: تبويب صدرالدين الشيرازي+ ، وهو تبويب سداسي:
١. معرفة المبدأ (علم الربوبية): مشتمل على ثلاث مراتب: معرفة الذات ومعرفة الصفات ومعرفة الأفعال.
٢. معرفة الطريق : تعريف السفر للإنسان إلى الله والسلوك له نحو الدار الآخرة.

٣. معرفة المعاد
٤. معرفة الهداة: حكاية أقوال الجاحدين وكشف فضائحهم وتجهيلهم وتسفيه عقولهم في تحرّيهم طريق الهلاك بالمجادلة والمحاجّة على الحقّ، والمقصود منه إمّا في جنبة الباطل فالإفصاح والتحذير والتنفير، وإمّا في جنبة الحقّ فالإيضاح والتثبيت والتقرير.
٥. عمارة الدنيا: تعريف عمارة المراحل إلى الله وكيفية أخذ الزاد والاستعداد للمعاد.

التقسيم الخامس: تبويب آية الله الشيخ محسن الأراكي للمعارف الإسلامية، وهو تبويب ثلاثي بحسب الظاهر لكن لدى التأمّل يتّضح أنّه تقسيم ثنائي ركّز على جانبين: النظري والعملي.
المدخل إلى الفكر الإسلامي: (المعرفة النظرية ، المعرفة العملية) .
القسم الأوّل: العقائد والأُصول: (النظرة الكونية العامّة، أُصول العقائد)
القسم الثاني: السلوك: (سلوك الفرد الإنساني، السلوك الاجتماعي).
التعليق: يرد على هذه التقسيمات – مع الغضّ عن تداخل الأقسام – ما يلي:
١. عدم وضوح أساس القسمة التي ابتنت عليها.
٢. عدم جامعيتها، وهذا هو أهمّ إشكال نُسجّله عليها.

التقسيم الثلاثي الشائع للفكر الإسلامي: في البدء ينبغي أن يُعلَم أنّ عملية تقسيم الفكر الإسلامي تقسيماً جامعاً مانعاً عملية في منتهى الصعوبة، وبحاجة الى مقدّمات طويلة عريضة وتتوقّف على القيام بخطوات متعدّدة ودقيقة. ولا يجرؤ عليها كلّ أحد، بل يبدو في النظر أنّه لا يجرؤ عليها أحد.

إنّ الرؤية الشائعة في الفكر الإسلامي ترى تقسيم موادّ الفكر الإسلامي الى ثلاثة أقسام، وأساس هذه القسمة هو طبيعة وسنخ المحتوى، فإنّ المحتوى إمّا أن يكون من سنخ الحقائق التي يجب الإيمان بها فهو العقائد، وإمّا أن يكون من سنخ التشريع فهو الأحكام، وإمّا أن يكون من سنخ التوصيات فهو الأخلاق.

ومن الجدير بالذكر إنّ هذا الثلاثي غير معلوم النسب، ففي أيّ علم تمّ توليده؟ وهل تمّ إنتاجه في علم الكلام؟ أو علم الأُصول؟ أو علم الفقه؟ أو غيرهما؟ وإن كان من المظنون قوياً أنّ هذا التقسيم يتناسب مع الذوق الأُصولي.

وقد سرت هذه الثلاثية في الأذهان كانتشار النار في الهشيم، وصارت من المسلّمات الواضحة التي لا تحتاج الى دليل، وشأنها أجلّ من أن تُعرَّض الى النقد، بل هي فوق النقد.

ومهما يكن من أمر فيا تُرى هل يُمكن الاستدلال على هذه القضية أوْ لا؟

وحيث إنّنا لم نعثر على مَن نظّر لهذه القضية واستدلّ عليها سوف نقوم بعرْض استدلال تبرّعي منّا.

والذي ينقدح في الذهن أنّ الدليل الذي يُمكن من خلاله إثبات هذا الثلاثي هو أحد أمرين:

الدليل الأوّل: الاستقراء

الدليل الثاني: الدليل النقلي

المتحصَّل من الطائفة الثانية من الآيات بمجاميعها الأربع: أنّ القرآن الكريم مشتمل على المضامين التي تُحقّق القضايا التالية: هداية الناس، عدم الشرك، الإلتزام السلوكي بالأحكام، السموّ الأخلاقي، التوازن والتعادل، البناء الروحي، التحلّي بالوعي، الطموح في الرقيّ والتكامل، النشاط الاجتماعي، فعل الخير وعمل الصالحات، التطلّع الحضاري.

ونحن إذا عرضنا (الثلاثي المتعارف: العقائد الأحكام الأخلاق) على هذه المائدة القرآنية نرى عدم شموليته لمحتوياتها طرّاً، حيث إنّ بعض المفردات لا تندرج تحتها، وهي:

- البناء الروحي.
- التحلّي بالوعي والعظة والاعتبار.
- الطموح في الرقيّ والتكامل.
- فعل الخير وعمل الصالحات.
- النشاط الاجتماعي.

إنّ المراد بالإسلام لا يخرج عن أحد اثنين: إمّا أن يُراد مصادر الإسلام (القرآن والسنّة) الواقعية أو المتوفّرة، وإمّا أن يُراد ما يشمل العلوم الإسلامية ومخرجاتها. والإشكال وارد على كلا الاحتمالين، كما هو واضح.

أهمّ نتائج البحث:

١. لقد أثبتنا عدم جامعية هذه المقولة لجميع امتدادات الفكر الإسلامي .

٢. إنّ جملة القضايا التي لا تندرج تحت هذه المقولة لا على سبيل الحصر ما يلي :

- العلوم الإسلامية.
- منتوجات العلوم الإسلامية ومخرجاتها.
- المعارف القرآنية، والتي جعلناها تحت العناوين الخمسة التالية:
  a. المجال المعنوي والروحي.
  b. المجال الحضاري.
  c. المجال الاجتماعي.
  d. الوعي الحياتي (المجال الثقافي).
  e. المجال التربوي.

٣. هذا مضافاً الى مناقشات وتعليقات عامّة أشرنا إليها آخر البحث.

الناقد الأول: طلال حسن

- هذا البحث محاولة جديدة لمحاولة معالجة ما يدعى انه عن المسلمات.
- ملاحظات عام و خاصة. ملاحظات على العنوان.
- استعمال كلمة الجدولة توحي بوجود تصنيف رياضى للموضوع و الاقتراح هو التقسيم الثلاثى للفكر الاسلامى.
- اصطلاح الفكر الاسلامى يريد به المنظومة الاسلامى. المقسم هو نفس الدين الاسلامى و ليس الفكر الاسلامى و فيه ساعة و يحتاج الى مراجعة.
- استعمال ثانية العلوم الاسلامية و المعارف الاسلامية لم يتبين الفرق بينهما. لا يوجد ضابط حقيقى للفصل بينها (هناک خلط بين العلوم الاسلامية و المعارف الاسلامية)
- سوق التقسيمات لبعض الاسلام هو تقسيم للمعارف القرآنية و ليس كل المعارف الا تقسيم الاراكى.

- نفس الاشكال يساق الى الروايات المذكورة كدليل مختصة بالمعارف القرآنية. المقسم فى الروايات مختلف اى التقسيم فى الروايات. ملحوظه باعتبار ان المقسم مختلف.
- فى محاكمة الروايات و التقسيمات كانت تتحكم بالكاتب الروية الاصولية.
- الباحث لم يننته الى البديل لهذا الامثال.
- ما ذكر الكاتب فى نقض على التقسيمات.
- مسالة الشيطان.

الناقد الثاني: حسن عبدى

- فى بداية البحث كان عن المعترض محاولة الدفاع عن التقسيمات المتعارفة و تصحيح ما قاله العلماء و تكميله. (البحث: الفكر الإسلامي، العلوم الإسلامية، مباحث ترتب بالإسلام والدين.
- لم يكن هناک وحدة المقسم.
- لابد من الرجوع الى الاصول و المتابع لا الى الفروع فى الجدوله.
- ذكر الناقد بعض المصادر الاساسية كان يمكن الرجوع اليها.
- هناک جهات مخذلة لتقسيم العلوم: الموضوعات، الغايات والمنهج.
- ولا نجد ما يساعدنا فى رد هذه الجدولة الى جهة معينه وقسم واحد أى اساس واحد للقسمه.
- البحث يحتاج الى نظر شامل للأبعاد مختلفة لجدولة العلوم.